مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

تشكل جسد الليبرالية الكلاسيكية

تقاطع الفردية والذاتية مع أحداث تاريخية في سياق الحداثة

مناف الحمد
باحث سوري

2023

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 23 أكتوبر 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

تشكل جسد الليبرالية الكلاسيكية[1]

تقاطع الفردية والذاتية مع أحداث تاريخية في سياق الحداثة

1 - البحث مقتطف من كتاب «في الليبيرالية» مناف الحمد، مؤسسة مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع، 2023.

أولاً- تمهيد

إذا كان ثمة نواة صلبة تدور في فلكها تجليات الليبرالية المختلفة، فلا ريب أن هذه النواة هي مفهوم الفردية، وإذا كانت محمولاتها تسمها بسمات مختلفة عبر سيرورة تطورها، فإن الفردية تبقى الجوهر الذي لا يمكن لليبرالية أن تكون ما هي من دونه. وإن هذا الجوهر، إنما يتجلى في صورته الأوضح في الليبرالية الكلاسيكية التي تتمحور حول الفرد: حريته واستقلاليته وحقوقه الأساسية الأخرى، وهي الرؤية التي لا تربط هذه الحقوق بقيم جماعية، ولا بغايات سوى كونها حقوقاً مقصودة لذاتها، ولكن هذا التمحور حول الفرد لا يعني أن الليبرالية لا تعنى بالمجتمع، ويمكن سرد قائمة من المنظرين الليبراليين المؤسسين الذين حملوا المجتمع على محمل الجد من توكفيل (1859) إلى مل (1873) إلى غرين (1882) إلى ديوي (1952)؛ فهم على الأقل تحدثوا عن مجتمع لا يعيق اختيار الفرد لمسيرة حياته بحرية، ولا يفرض عليه سلطة قسرية رغماً عنه؛ فهو مجتمع يمنح الأفراد قوة الجماعة برمتها؛ لكي يصبحوا أقدر على الدفاع عن ممتلكاتهم وأنفسهم.

فالمجتمع المليء بالليبراليين؛ مجتمع متخم بالجمعيات التطوعية التي تسهل للأفراد التعبير عن ذواتهم وأفكارهم بحرية، ولكن شكل هذا المجتمع شكل غير محدد المعالم بصرامة؛ لأنه مجتمع مؤسس على حريات الأفراد وحقوقهم. ولهذا، فإن شكله يتبدل بحسب ظروف الاجتماع التي تحيط بهؤلاء الأفراد[1].

ولا يعني التمحور حول الفرد أيضاً أن الليبرالية ليست نظرية في الدولة؛ فثمة ملامح ثابتة للدولة الليبرالية في قلبها ملمح حكم القانون، وأنها دولة تستخدم أقل قدر من الإكراه في تعاملها مع مواطنيها، وملمح الالتزام بحكومة دستورية.

ولكن مثار الجدل بخصوص نظرية الليبرالية في الدولة هو علاقتها بالديمقراطية؛ فبينما رأى البعض مثل توكفيل ومل أن الديمقراطية ينبغي ألا تكون دكتاتورية أغلبية، وأن هذه الأغلبية يجب أن تكبح، لكي لا تتحول إلى أغلبية مستبدة بقيود مثل شرعية الحقوق الثابتة، اعتقد آخرون أن الحكومة الديمقراطية إذا لم تكن ليبرالية، فهي لن تكون حكومة ديمقراطية أبداً، وأن تقييد سلطة الأغلبية عن طريق شرعة الحقوق ليس انتهاكاً لحق هذه الأغلبية، إذا ما ميزنا بين سلطة الأغلبية وقوتها، وبهذا التمييز يصبح تقييد سلطتها ليس تقييداً، وإنما هو توضيح لحدود هذه السلطة. وقد اضطر أصحاب هذا الرأي إلى ربط الليبرالية بالديمقراطية ربطاً لا ينفصم؛ لأن المرء لا يجوز أن يحكم من دون منحه حق التصويت، ومن دون مشاركته في القرارات التي يتأثر بها وإلا نزع منه حقه في المساواة والحرية. والمهم أن الحكومة الليبرالية حكومة محدودة مقيدة بحق الاختيار وحق التعبير وحق الخصوصية وغيرها من الحقوق[2]. ومن الواضح أن نقطة الارتكاز في النظرة الليبرالية للمجتمع وفي النظرية الليبرالية للدولة هو الفرد.

---

1 - Ibid., pp. 37 - 38

2 - Ibid., pp. 38 - 40

ويحيل الفضاء الدلالي لمفهوم الفردية الذي يشكل قلب الليبرالية إلى فضاء دلالي أكبر هو الحداثة؛ فالحداثة بما كرسته من مفهوم للذات، وما سنته من عقيدة للتقدم قد وسمت الليبرالية بميسمها، وهو ما يجعل الفضاءات الدلالية الثلاثة متداخلة متبادلة التأثر والتأثير، ولعل البحث عن حد أوسط بين الفردية والليبرالية من أجل العثور على مناط للتعلق سوف يفضي حتماً إلى مفهوم الذاتية.

ثانياً - ظهور مفهوم الفرد وتطوره

ظهر الفرد بالمعنى الحديث نتيجة القضاء على البنية الاجتماعية القروسطية، هذه البنية التي امتازت بهيمنة سلطة كل من الكنيسة والدولة المتحالفتين في زواج نفعي ضد البنى الوسيطة من المؤسسات الوسيطة، والأديرة، والبرلمانات، والأصناف الحرفية، والطبقات الاجتماعية، والتي كانت بدورها لا تلقي بالاً للحرية الفردية، التي لم تكن تخطر في خلد أفراد تلك الفترة؛ بسبب تماهي الشخص مع دوره في النظام الاجتماعي، وتأطير حياته الشخصية بمجموعة من الواجبات التي تلقي بظلها على كل مجال من مجالات النشاط.

وإذا كان هذا الوضع يعطي انطباعاً سلبياً لأول وهلة، فإن له بعداً إيجابياً يتمثّل في كون هذا الإنسان المقيد كان راسخ الجذور في بنية مغلقة، متماثلاً مع دوره في المجتمع، وكونه جزءاً محدّداً من نظام اجتماعي أعطاه إحساساً بالأمن والانتماء.

هذا الإحساس بالأمن، وإن كان مشوباً بالألم والمعاناة، فقد احتلّ الساحات الفكرية والنفسية لأفراد ذلك العصر لما ضمنته الكنيسة لهم من محبة غير مشروطة، ولما أكسبتهم من قناعة بحب الله ومغفرته. وقد قوّى ذلك الإحساس محدودية الكون في وعي أبناء القرون الوسطى الذي يقع الإنسان في مركزه قبل الثورة الكوبرنيكية (التي جعلته كائناً يعيش في كوكب لا يقع في المركز كما كان يظن) كما قوّى الإحساس بالمحدودية مفهوم الحياة القصيرة التي تشكل جسراً إلى حياة خالدة بعد الموت قد تكون جنّة أو جحيماً بحسب الأفعال في الحياة الأولى.

ما تحصّل عن هذين البعدين السلبي والإيجابي هو ارتباط الإنسان بالروابط الأولية، فهو لا يتخيل نفسه فرداً إلا بتوسط دوره الاجتماعي[3]. وقد وجد انعدام الإدراك الذاتي للفرد هذا في المجتمع القروسطي التعبير الكلاسيكي عنه في وصف ياكوب بوركهارت:

«في العصور الوسطى استلقى كلا جانبي الوعي - الجانب المتجه إلى الداخل والجانب المتجه إلى الخارج- حالماً أو نصف يقظان تحت ستار مشترك وكان الستار منسوجاً من الإيمان والوهم والانشغال الذهني الطفلي ويبدو من خلاله العالم والتاريخ مكتسيين بألوان غريبة، وكان الإنسان لا يعي إلا أنه عضو في عرق أو شعب أو حزب أو أسرة أو جماعة ذات صفة قانونية فلم يكن يعي نفسه إلا من خلال صنف عام»[4].

3 - انظر إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972، ص. 39 - 42

4 - المرجع نفسه، 39 - 42

ويعزى تغير هذه الحال إلى عدة أسباب:

السبب الأول: ظهور البرجوازية التجارية

فالأسواق التي لم تكفّ عن التوسع، والتي ترافق مع ظهورها اختراع وسائل اتصالات متطورة وأنماط تبادل غير معهودة[5] قد بدلت بنية الإنسان والمجتمع؛ وبذلك ظهرت البرجوازية التجارية التي تحالفت مع السلطة الملكية، لكي تؤمن سنداً لها ضد خصومها الأرستقراطيين. وتقوضت الاحتكارات المحلية، وانتهت معها المصالح الفدرالية القائمة عليها. وقد صبغت البرجوازية التجارية الحياة السياسية والاجتماعية بصبغتها الاقتصادية، وتركت للفرد الحبل على الغارب، لكي يحقق ما يصبو إليه[6].

بدأ الاستقرار النسبي لوضع الحرفيين والتجارة في مدينة القرون الوسطى بالتراجع في أواخرها، حتى انهار بكامله في القرن السادس عشر؛ ففي القرن الرابع عشر ظهر تمييز متزايد داخل النقابات، وأصبح لبعض أعضاء النقابة رأسمال أكبر وصار بعضها احتكارات قوية[7].

وما حدث من نمو رأسمالي في النقابات حدث مثله للتجارة، فبينما كانت التجارة في القرون الوسطى تجارة صغيرة داخل المدينة نمت التجارة القومية والدولية بسرعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كما نما دور رأس المال في الصناعة، فأصبحت الأسهم في القرن الخامس عشر من نصيب الرأسماليين الذين كانوا يعملون بواسطة العمال الذين تدفع لهم الأجور، وليس لهم سهم في المشروع[8].

حررت الرأسمالية الفرد وسمحت له أن يقف على قدميه، وأن يجرّب حظه وصار سيد مصيره. وقد قلبت البرجوازية التجارية مفهوم الحياة الأرستقراطي الذي كان ينظر فيه إلى الشرف والفروسية والمجد على أنها هي الحياة بألف ولام التعريف، وأصبح المفهوم الجديد لهذه الحياة التي تستحق العيش هو الحياة العادية للإنسان العادي المنتج، وأصبح للزواج وتكوين الأسرة وامتهان الحرفة قيمة مركزية في هذه الحياة[9].

---

5 - فالرأسمالية المالية التي قامت على أساس الاعتماد المالي والكمبيالة ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر في فلورنسا والبندقية وجنوة، والأساليب والنظم التجارية كالمضاربات المالية وتحويل المدفوعات والاعتمادات كانت المحور الذي استقطب حوله أكثر المعاملات التجارية والتبادل الدولي. إن اتساع مجال الحركة التجارية وازدياد الكميات الضخمة التي يجري تسويقها كان تغييراً أساسياً في النظام الاقتصادي. أما الفترة الأخيرة من القرن الخامس عشر، فتتفق مع ما يسميه فرانسوا سمياند بطور «B» أي الفترة التي قلت فيها المعادن وندرت للغاية وتراجعت فيها الأسعار تراجعاً عظيماً وانكمشت فيها المبادلات التجارية وضؤلت حركة الإنتاج مما شجع الناس على البحث للخروج من الأزمة وراح جيل جديد من التقنيين ورجال الأعمال المغامرين يحاولون ابتداع شيء جديد. فكانت الدقة التي حققوها في سفن الكرافيل التي عوّل عليها المستكشفون الغرافيون، سواء في قلوعها أو في اتجاه سيرها، وتحديد موقعها الجغرافي بالاعتماد على زيج الزوايا ومقدرة البحارة على الاتجاه بالسفينة في الاتجاه المطلوب. كل هذه التحسينات التقنية أدت إلى تطور عظيم في وسائل النقل البحري، وهو بدوره أحدث ثورة في المجال الجغرافي وسهل وصول التوابل إلى الأسواق الإنجليزية والفرنسية والفلمنكية والألمانية، ووصول المواد الصناعية من الهند والانقلاب المفاجئ في صناعة النسيج من جراء ورود القطن من السوس ومن جزر الرأس الأخضر وتطور صناعة السكر على إثر اختراع مصانع السكر في جزر ماديرا والأزور والجزر الخالدات وبروز صناعة صيد الأسماك على شواطئ جزيرة الأرض الجديدة، واشتداد الطلب بالمقابل على مقاطعات البلطيق وأوروبا الغربي لاستيراد ما تنتج من منسوجات صوفية وأجواخ وغير ذلك من مصنوعات الحديد والنحاس والزئبق والمدافع والبارود وتصدير هذه المواد نحو لشبونة واشبيلية. كل هذه المجاري التجارية الجديدة ساعدت على طلوع عالم رأسمالي وتسببت في ارتفاع الأسعار وفي ازدياد الإنتاج والمبادلات التجارية.

6 - اريك فروم، الخوف من الحرية، مرجع سابق، ص. 51 - 54

7 - المرجع نفسه، ص. 51 - 54

8 - المرجع نفسه، ص. 51 - 54

9 - انظر تشارلز تايلور، منابع الذات، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2014، ص. 325

ومن إعادة الاعتبار إلى الحياة العادية، يمكن تلمس السبب في ربط ماكس فيبر جذور الرأسمالية بالبروتستانتية؛ فالأخيرة هي التي مجدت العمل وجعلته محورياً في حياة الفرد.

السبب الثاني: غلبة الفلسفة الاسمية على الفلسفة الواقعية

على الرغم من صراع النظريّتين الاسمية والواقعية مع بعضيهما، واختلاف جذر هذه عن جذر تلك، فإن هذا الصراع تمخّض في النهاية عن تكريس مفهوم الفرد وتبلوره؛ فبينما تنكر الفلسفة الاسمية التي ترسخت على يد وليم الأوكامي[10] وجود مفاهيم عامّة، وتعدها مجرد أسماء لا تحتلّ حيّزاً في الفكر إلا بعد أن تتمثّل صوراً محسوسة أو مشاعر، وتعدّ نسبيّة معرفة الواقع أمراً لا مناص منه؛ لأن العقل إذ ينتج الفكرة لا ينتجها إلا بعد تلقّيه تأثيرات الحواس والأهواء[11]. ويرى أنصار المذهب الواقعي أنّ نفس الإنسان لا ماديّة. ولهذا، فهي تستطيع أن تتفهّم الكليّات وتشتقّ منها عدداً من المفاهيم والمدلولات بالاستعانة بالمجاز، وهو ما يكفل لها القدرة على الوصول إلى مفهوم الله الكائن الخالد الأزلي السرمديّ اللامتناهي الكليّ القدرة، الكليّ العلم، المطلق الحرية والإرادة[12].

وعلى الرغم من اختلافهما في المنطلق وافتراقهما في النتيجة، فإنّ الاسمية باعتمادها على الملاحظة والاختبار مثّلت حافزاً قويّاً للتقدّم العلمي، وهو ما شفعته وعزّزته آليّة التبادل في الاقتصاد الحديث التي تنصبّ على سلع مختلفة في قيمتها الذاتية بالنسبة إلى المتبادلين، وهو ما يتوافق مع رؤية نصير المذهب الاسمي الذي يرى أن قيمة شيء من الأشياء، إنما هي عبارة عن المفعول المتجمّع للمقارنة في سوق الرغبات التي يوحي بها هذا الشيء للمستهلكين، وهي لا تنتمي إليه انتماءً ذاتياً، كما إن الاسمية برفضها إمكانية معرفتنا الأشياء في ذاتها، واقتصار معرفتنا على ظواهر الأشياء ومدلولاتها جعلت من المستحيل الصعود من الأشياء المحسوسة إلى الله، وهو ما أوصل أنصارها إلى عدّ حقائق الإيمان ألغازاً لا حلّ لها، ولهذا كان طبيعياً أن يفصل الاسميون بين العقل والدين، وأن يبقوا من الدين على سلسلة من الطقوس والعبادات بعدم اكتراث لوجود إله هو غير ممكن الإدراك أصلاً. وكان التخفّف من عبء الغيبيات قد أفضى إلى تسهيل عملية فصل الدين عن الدولة، وإلى تحكيم الملاحظة وتكريس منهج البحث العلمي القائم على الاستقراء والتجريب[13].

ولأن الفلسفة الواقعية تؤمن بوجود كليّات للأشياء يمكن إدراكها، فقد استعانت - كما ذكرنا آنفاً- بالمجاز، وعدّت -للتملّص من براهين الفلسفة الاسمية- أن لا سبيل إلى المعرفة العميقة بالكليّات إلا بتوسّل الشّطحات

---

10 - وليم الأوكامي (1288 - 1348): راهب إنكليزي، يعد من أهم المفكرين في القرون الوسطى، من أشهر أفكاره أن الإيمان هو الطريق الذي يوصل إلى الحقائق اللاهوتية وليس العقل، كما يعد رائداً من رواد الفلسفة الاسمية.

11 - انظر رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، المجلد الرابع، ط2، بيروت: دار منشورات عويدات، 1987، ص. 41

12 - المرجع نفسه، ص. 71

13 - رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق، ص ص. 72 - 73

الصوفيّة واكتناه الشعراء[14]، وهو ما قام إراسموس الهولندي[15] بتكريسه، ولكن عبر الدعوة إلى تربية قوة التمييز وملكة المحاكمة العقلية وعدم الاعتماد على رجال الدين، وعدم تقويم السلوك بدالّة العرف. وهنا أيضاً مع الواقعيين أفضت تطورات المذهب، رغم تناقضه مع المذهب الاسمي إلى تكريس للفردية التي تعد شطحات الصوفي ومخيّلة الشاعر من أهم تجليّاتها، ويجسد الاعتماد -امتثالاً لدعوة إراسموس- على صلاة القلب والمحاكمة العقلية إحدى أهم النتائج التي تعبّر عنها[16].

السبب الثالث: الإنسانية الإنجيلية

وتمثل مذهباً يقف في وجه نتائج الاسمية، وما يلزم عنها من تفكيك عرى الإيمان عبر مقولة العجز عن إدراك الكليات؛ لأنها لا توجد إلا في الذهن، وتنسب إلى الفيلسوف الهولندي إراسموس الذي دعا المسيحيين إلى تمثل الإيمان الحقيقي عبر اللواذ بالمسيح الذي يمثل رأساً لجسد هو المسيحيون؛ ولأن الأعضاء ضعيفة بذاتها، فإنها لا تستطيع فعل أي شيء من دون الرأس. ولعل افتقار الرهبان ورجال الكنيسة للمصداقية كان علة من علل ظهور الإنسانية الإنجيلية، فهؤلاء الرهبان تحت وطأة الفلسفة الاسمية لم يعودوا قادرين على تمثيل الأسوة، وتحولت عبادتهم وما يعظون به إلى طقوس جافة لا روحانية فيها.

ولأجل هذا، فقد صرح إراسموس بأن التردد إلى الرهبان عبث:

«لكي تتجدد فيك الحياة المسيحية لا تذهب للرهبان، إذ إنهم قوم استسلموا للخرافات فهم قوم ظلام قساة خطفة حقودون نمامون نفاثون»[17].

وينصح إراسموس بتوسل الشريعة المسيحية؛ من أجل قذف نور الإيمان الصادق في القلب. أما ما يستخرج من لزوم بين مذهب إراسموس وبين الفردية -التي نحن بصدد محاولة استكشاف عوامل ظهورها- فهو دعوته إلى قراءة فلسفة السيد المسيح التي تتعرف من خلالها على الروح القدس، ويصبح ملتصقاً بك وعباراته هذه تفصح عن هذه الفكرة:

«فالشمس التي تشرق علينا ليست أكثر التصاقاً بالناس ولا أيسر تناولاً من تعاليم السيد المسيح، وإني لأتمنى من الصميم أن تتمكن أوضع السيدات من قراءة الإنجيل ومن قراءة رسائل القديس بولس... وعسى أن يقيم الله بين المزراعين والفلاحين من يردد آيات الكتاب المقدس ويلهج بها ويده على المحراث، وأن يطلع بين الحاكة والنساجين من يتغنى ببعض نصوص الكتاب المقدس بينما تتعاور يداه الوشيعة ذهاباً وإياباً وأن

14 - المرجع نفسه، ص. 75

15 - إراسموس (146 - 1536)، فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، حاول أن يضع مبادئ الحركة الإنسانية بحسب التوجهات المسيحية.

16 - رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق، ص. 76

17 - المرجع نفسه، ص. 77

يجد المسافر في عزلته ما فيه سلواه وتعزيته في سيره الرتيب بحيث يصبح الكتاب المقدس موضوع أحاديثهم وحديث سمرهم»[18].

السبب الرابع: البروتستانتية

فجر ظهور البروتستانتية عرى النظام السياسي والاجتماعي «الوسيط» الذي كانت البابوية الكاثوليكية تحاول ربطها ربطاً محكماً؛ بحكم ترابطها الوثيق مع الدولة الإقطاعية وادعاءاتها المقدسة؛ فقد جابه لوثر المواقف الثلاثة الجوهرية التي حمت المزاعم الرومانية، وهي:[19]

- أولوية السلطة الروحية على السلطة الزمنية.
- الحق البابوي في تأويل الكتاب المقدس.
- السيادة البابوية على المجمع الكنسي العام.

أعمل لوثر معول الهدم في كل هذه الجدران الصلبة واحداً تلو الآخر، فمهد الطريق لصياغة مسوغات دينية وشروط تاريخية ساعدت على تغليب سلطة الدولة، ثم الكيانات القومية الآخذة في التشكل، فعملت الدولة الزمنية على سحب البساط من تحت قدمي الكنيسة، ونزعت منها هيمنتها على الكثير من الوظائف السياسية والاجتماعية.

جابه لوثر الادعاء الأول بالقول:

«إن السلطات المسيحية الدنيوية يجب أن تمارس وظيفتها بحرية ومن دون عائق وخوف، سواء أكانوا يتعاملون مع البابا، أم مع أسقف أم مع قس»[20]، «وإن كانت السلطات الدنيوية عاجزة عن إنقاذ الكنيسة فعلى الأمراء المسيحيين أن يهبوا لتحقيق ذلك»[21].

يلزم عن مسؤولية الأمراء حماية سلامة الكنيسة هدم الادعاء البابوي بالحق الأخير في تأويل الكتاب المقدس؛ فالكنيسة -حسب لوثر- هي كهنوت لجميع المؤمنين «فكلنا قساوسة لأن لدينا إيماناً واحداً وإنجيلاً واحداً وسرّاً مقدساً واحداً، فما الداعي إذن ألا نتذوق أو نختبر ونحكم على ما هو صحيح أو خطأ في الإيمان»[22].

---

18 - المرجع نفسه، ص. 76 - 79

19 - جون إهرنبرغ، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008، ص. 138

20 - Martin Luther, (An Appeal to the Ruling Class of German Nationality as to the Amelioration of the State of Christendom), in: Luther, Martin Luther, Selections from His Writings, New York: Anchor Books,1962, p. 411

21 - Ibid., p. 412

22 - Ibid., p. 414

لم يستطع الادعاء الثالث بالسيادة البابوية على المجمع الكنسي العام الصمود بعد انهيار الادعاءين الأوليين، فيمكن للبابوات أن يناقضوا الكتاب المقدس، ويمكن للكنيسة أن يفسدها الشيطان، وعندما يحدث هذا فيجب أن يحاكموا من طرف جميع المؤمنين في مجمع كنسي عام[23].

أعطى لوثر في المحصلة الإنسان الاستقلال في الأمور الدينية، وحرم الكنيسة من سلطتها وأعطاها للفرد كما رسخ مفهوماً جديداً للإيمان هو مفهوم الخبرة الذاتية: «فلا البابا ولا الأسقف ولا أي كائن آخر له الحق في فرض أمر واجب على الإنسان المسيحي من دون رضاه»[24].

إصرار لوثر على استقلال الضمير الفردي كان خطوة مهمة في حصر سلطة الدولة الشرعية في تعاملات الناس الظاهرة كما إن نطاق عملها يتحدد بحماية الحياة والملكية وغيرها من ضروريات الحياة الأرضية. أما الدين والإيمان، فهما خارج نطاق الخضوع للقانون.

وعندما أثيرت قضية التوفيق بين قدرة الله الكلية والحرية التي يتمتع بها الإنسان في إرادته فقد ظهر للوثر، وهو لا يزال راهباً تابعاً للرهبنة الأوغسطينية، أن الإنسان أعجز من أن يتمم وصايا الله وأعجز من أن ينال بالتالي مثوبة من عنده. فالإنسان تلازمه شهوة هي من طبيعته وتتمطى بين ضلوعه وتتغلغل في ثنايا كيانه فتحمله حملاً على الشر إلى الإثم والرذيلة: «فالطبيعة البشرية بحكم جوهرها فاسدة وهي عاطلة بشكل لا حيلة فيه ولا مرد»[25].

فحرية الإرادة فسدت جرّاء خطيئة آدم وبواسطة الخطيئة الأصلية يرى الإنسان نفسه مسوقاً إلى الشر بصورة لا مرد له عنها، فالإنسان لا يمكنه أن يصنع إلا الإثم. ولكن الله الذي يعلم كلّ شيء منذ الأزل يرسل بعطف إلهي ومنة نعمته لمن اختارهم واصطفاهم لابنه يسوع المسيح الذين افتداهم السيد لمسيح بدمه وبذل لأجلهم آخر نقطة فيعطيهم دونما أي استحقاق منهم الإيمان بيسوع المسيح، هذا الإيمان الذي به وحده يتم الخلاص كما يزرع فيه الخضوع لإرادة الله.

تقع الإرادة البشرية - حسب لوثر- بين الله والشيطان، وهي كالحصان تترك أمرها لمن يقودها ويدفعها إلى الأمام، فإذا كان الله هو الذي يوجهها اتجهت الاتجاه الذي يريده لها، وإذا كان الشيطان هو الذي يتحكم بها، ذهبت حيث يريد لها الشيطان وسارت كيفما يريد، فالإرادة البشرية ليست حرة باختيار سيد لها[26].

كان الفرق جذرياً بين إراسموس ولوثر، وما زاده حدة هو إعطاء لوثر الكنيسة الحق بالحد من حرية الفكر وفرض الطاعة السلبية على الجميع. ولقد وصل الأمر ببعض أتباع لوثر إلى الذهاب أبعد منه في تكريس

---

23 - جون إهرنبرغ، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، مرجع سابق، ص. 141

24 - مارتن لوثر، حرية المسيحي، 2000، http: //www.lutherinarabic.org/freedom.htm

25 - رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، ص. 81

26 - المرجع نفسه، ص. 84

مفهوم العلاقة المباشرة للفرد مع الله، ونزع سلطة الكنيسة في تفسير النصوص المقدسة، والدعوة إلى المساواة بين الأفراد، محدثين بذلك صدوعاً في بنية المقدس الموروث الذي تضطلع الكنيسة بمهمة حمايته وفرضه.

فالراهب السويسري زونكلي (1531) الذي كان يتعاطف مع إراسموس، ثم وقع تحت تأثير لوثر تعداه بعد ذلك وتجاوز تعاليمه فرفض فكرة الأسرار؛ فالتعميد والعشاء السري ليسا سوى رمزين، والمبادلة رابطة روحية مع روح المسيح ليس إلا، والعبادة اقتصرت على قراءة التوراة والموعظة الدينية والاشتراك؛ فالشعب أو جمهور المؤمنين هو الذي يقرر بنفسه تفسير الآية وكيفية فهمها، كما أنه هو الذي يحكم على درجة سلامة موقف كل مؤمن من بين الجماعة. أما الكنيسة، فليست سوى ديمقراطية تذوب في الدولة الديمقراطية[27].

كذلك قام أحد تلامذة لوثر، وهو القس الألماني مونزر (1525) بتأسيس حركة دينية إصلاحية جديدة عرفت بحركة منكري المعمودية في بلدة زويكان من أعمال ساكس. وقد انطلق في حركته هذه من المبدأ الذي قال به لوثر، وعلم أن ما يجعل للسر قيمة هو الإيمان الذي ينتقل إلى المعمد عند اقتباله سر التعميد. فمعمودية الأطفال لا تحدث فيهم أي تبرير قط؛ ولذا كان من المتوجب إعادة تعميد هؤلاء الأشخاص عندما يبلغون سر المراهقة؛ إذ يصبح بمقدورهم آنذاك أن يقوموا بعمل الإيمان المطلوب. كذلك اعتقد مونزر أن كل إنسان يتلقى الإلهام من الروح القدس مباشرة، إذا ما تمنى ذلك هو نفسه كما يتلقى منه أي معرفة حتى إنه يتلقى منه أوامر ونواهي خاصة. ونتيجة لهذا الاعتقاد، تصبح الكنيسة والطقوس والشرائع في حكم المهملات التي لا لزوم لها؛ لأن الإلهام الذي يفيضه الروح القدس على كل من يتصل به يجعل الجميع متساوين من دون الحاجة إلى أي سلطة أو هيئة تحقق المساواة، وهو استنتاج أملته تلك المقدمة وأملته رغبة في وجوب العودة بالحياة إلى ما كانت عليه جماعة المؤمنين الأولى في مطلع الكنيسة من بساطة، حيث كان كل شيء مشتركاً بين المؤمنين[28]، وهي مساواة كشف لوثر عن عدم ترحيبه بها عندما فض تحالفه مع الجماهير، عندما ذهب الفلاحون إلى أبعد من الهجوم على سلطة الكنيسة، وتحولوا إلى ثوار يطالبون بإسقاط السلطة كلها، وتقويض أسس النظام الاجتماعي الذي كانت الطبقة الوسطى شديدة الاهتمام به؛ لأن لديها امتيازات تدافع عنها[29].

وفي تكريس سلبي للفردية عبر تأكيد تفاهة الفرد التي تجد تفسيرها في تحرر الإنسان من كل الروابط التي تربطه بالسلطات الروحية، عمل لوثر على حث الأفراد على نيل هذه الحرية التي على الرغم من ظاهرها الإيجابي، إلا أنها تذر الفرد وحيدا قلقاً، مغموراً بالإحساس بالتفاهة الفردية والعجز.

وهي التفاهة التي تتجسد بصورتها الأوضح في عضو الطبقة الوسطى العاجز أمام القوى الاقتصادية الجديدة، وقد قدم لاهوت لوثر تعبيراً عن هذا الإحساس بالتفاهة، ولكنه أردفه بحل هو إذلال النفس إلى أقصى حدّ، والتخلي عن كل أثر للإرادة الفردية وتحويل علاقته بالله إلى علاقة خضوع تام.

27 - المرجع نفسه، ص.ص. 85 - 86

28 - المرجع نفسه، ص.ص. 85 - 86

29 - See Martin Luther, (Friendly Admonition to Peace Concerning the Twelve© Articles of the Swabian Peasants, in: Hans Joachim Hillerbrand, ed., TheProtestant Reformation, Documentary History of Western Civilization. HarperTorchbooks; TB 1342 (New York: Harper and Row, [1968]), p. 83

فالخضوع التام والقبول بالتفاهة الفردية هو الذي يحرر نفسك من الإحساس بالعدمية، ويجعلك تشارك في مجد الله[30]. وقد كرس كالفن[31] هذا التوجه عندما عدّ إذلال النفس والقضاء على عزة النفس البشرية محور تفكيره، فهو يقول إن الفرد يجب ألا يشعر أنه سيد نفسه. فالبشر لله وليسوا لأنفسهم وقد عبر عن هذه الفكرة بقوله: «نحن لسنا لأنفسنا، ولذلك فلننس ما أمكن النسيان أنفسنا وكل الأشياء التي لنا على العكس نحن لله لذاك فلنعش ولنمت في سبيل الله؛ لأنه كما تهلك الناس أشد الأوبئة اجتياحاً إن هم أطاعوا أنفسهم، فإن نعيم الخلاص الوحيد ليس أن يعرف المرء، أو يريد أن يعرف أي شيء بنفسه، بل أن يهديه الله الذي يسير أمامنا»[32].

ما يشكل الفكرة المحورية بالنسبة إلينا في فكر كالفن هو عده الجهد والعمل هدفين في ذاتهما، وهو تبدل سيكولوجي يمكن عده الأهم منذ نهاية العصور الوسطي، فبينما كان العمل في مجتمع القرون الوسطى يوزع بصورة متفاوتة بين الطبقات المختلفة في التراتب الاجتماعي، وكان فيه قدر كبير من الاستغلال، وكان مشروطاً بالضغط من الخارج أصبح الناس مدفوعين إلى العمل بالإلزام الداخلي، وهو ما شق الطريق أمام نشوء الرأسمالية، وهي مساهمة غير مباشرة وغير مقصودة؛ لأن المعروف عن لوثر وكالفن أنهما ناصبا رأس المال العداء العنيف؛ لأنه من عمل إبليس. فلوثر يفصح عن موقف سلبي تجاه رأس المال:

«أكبر مصيبة نزلت بالأمة الألمانية، هي بلا شك، المضاربات المالية التي هي من اختراع الشيطان والبابا لتأييدهما هذه الأعمال التي جرت على العالم ويلات لا يمكن حصرها ولا تصورها؛ فالتجار مع الخارج في سبيل استيراد المحاصيل من كالكوت ومن الهند وأماكن نائية أخرى تسبب أذى للبلاد بتسرب نقدها إلى الخارج، ومثل هذه التجارة لم يكن من الجائز السماح بها عند الكثير عن هذه الشركات التجارية، حيث لا تقع العين إلا على الجشع وإلا على أمور مخالفة لأبسط قواعد العدالة»[33].

أما كالفن، فيتبنى مثالية بولس الرسول في الفقر الذي هو الشرط الأساسي لكل حياة مسيحية حقة «يكفينا أن توفر لنا وسائل العيش واللبس»[34]. ورغم موقفي لوثر وكالفن الآنفي الذكر، فإن لوثر امتنع عن سنّ أي قانون أو تشريع رغبة منه في إطلاق الحرية الكاملة أمام الناس، فعلى التاجر أن يرجع إلى ما جاء في الإنجيل وإلى صوت ضميره. فاللوثرية -رغماً عن لوثر- أدت إلى انتشار الرأسمالية تدعيماً منها للحكم المطلق ونظام الاستبداد. أما كالفن الذي نشر تعاليمه في جنيف التي كانت مركزاً مالياً كبيراً، فقد كان رأس المال والاعتماد

30 - إريك فروم، الخوف من الحرية، ص. 72

31 - عالم لاهوت وقس ومصلح فرنسي كان من المساهمين الأساسيين في حركة الإصلاح الديني وقد طور منظومة لاهوتية مسيحية سميت بـ«الكالفينية»، توفي عام 1564

32 - المرجع نفسه، ص. 75

33 - رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق،1987، ص. 108

34 - المرجع نفسه، ص. 108

المالي والمصرف وحركة الأعمال التجارية بالنسبة إليه من ترتيبات الله، ويجب بالتالي مراعاتها والعمل بموجبها واحترامها[35].

وقد ساهمت الكالفينية في تأكيدها مفهوم الالتزام الشخصي الذي يطالب المؤمن أن يتحمل عبء التزام شخصي يهيئ نعمة الخلاص، وقد تبلور هذا الالتزام الشخصي أكثر لدى الطهريين[36] وما يجعل هذا المفهوم وتطبيقه مؤسسين للفردية أنهما يحلان عرى روابط الفرد بالبنى الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد؛ لأن هذه البنى سوف تنقسم إلى مخلصين ومستحقي اللعنة:

فنظام الكنيسة الصحيح هو «نظام تركه الله للكنيسة، حيث يتعلم الناس تشكيل إرادتهم وأفعالهم طبقاً لناموس الله؛ وذلك عبر تعليم ونصح أحدهم الآخر، بلى، وعبر تصويب ومعاقبة جميع الأشخاص ذوي الرغبات والمزدرين بنفس العقاب»[37].

وقد ذهب الطهريون بعيداً في إيمانهم بالخلاص عبر الالتزام الشخصي، وخاضوا مغامرة كبرى لإنشاء عالم جديد عبر رحلة شاقة كرست المزاج الفردي في العالم الجديد، لما اعتور هذه الرحلة من مشاق الطبيعة التي لا ترحم ومقاومة السكان الأصليين الشرسة.

ثالثاً- الذاتية

مناط التعلق أو الحد الأوسط بين الفردية والليبرالية، وهو مفهوم الذاتية وجد صيغته الأبكر لدى ديكارت؛ وذلك في ظل مناخ حداثوي سنحدد ملامحه بعد قليل.

إن الثورة التي أحدثها غاليليو في النظر إلى الطبيعة كانت في نظر ديكارت مفتقرة إلى الروح الفلسفي العميق، وهو نقص اضطلع ديكارت بمهمة تلافيه ويوضح ديكارت موقفه من رؤية غاليليو بقوله:

«إنني أرى بصفة عامة أنه يتفلسف أحسن بكثير من الإنسان العامي، بحيث إنه يبتعد أكثر ما يمكن عن الأخطاء المدرسية ويهتم ببحث المسائل الفيزيائية بواسطة البراهين الرياضية. وفي ذلك أجدني متفقاً معه تمام الاتفاق وأعتبر أن ليس هناك وسيلة أخرى للوصول إلى الحقيقة. ولكن يبدو لي أنه يقصر كثيراً عندما يستطرد باستمرار ولا يتوقف أبداً لإقامة تفسير كامل لمسألة معينة، الأمر الذي يؤكد أنه لا يتناولها أبداً بانتظام وأنه قد بحث فقط، دونما اعتبار للأسباب الأولى للطبيعة في أسباب بعض الآثار المنفردة. وبذلك يكون قد بنى شيئاً بدون أسس»[38].

---

35 - المرجع نفسه، ص. 108

36 - أتباع مذهب التطهرية وهو مذهب مسيحي بروتستانتي ظهر في إنجلترا في عهد الملكة اليزابيث الأولى وازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أهم تعاليمه هي الإيمان بالكتاب المقدس مصدراً وحيداً للإيمان من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة..

37 - تشارلز تايلور، منابع الذات، مرجع سابق، ص. 348

38 - محمد هشام، في النظرية الفلسفية للمعرفة، أفلاطون، ديكارت، كانط، المغرب: افريقيا الشرق، 2001، ص.46

تكمن ثورية الكشف الغاليلي في تغيير النظرة الأنطولوجية للوجود كنظام قيمي وإحلال المعادلة الرياضية محل الماهية، وأصبح من المفروغ منه أن مذهباً في العلم لا يمكنه أن يشتق من التفكير في الفضيلة والقيمة[39].

وما مثل لحظة تدشين الفكر الأوروبي الحديث التي ترمز إليها الديكارتية هو نزع كل معنى قيمي للوجود، وهو تحقيق لما عجزت عنه الأفلاطونية التي فشلت في مشروع إقامة فيزياء رياضية بسبب اعتقادها الراسخ بالتطابق بين القيم والوجود[40].

قانونا سقوط الأجسام والقصور الذاتي هما اللب المتحصل من الفيزياء الغاليلية، وهما ليس تصحيحاً لأخطاء كما يظن، وإنما خلاصة توتر بين لا مفكر فيه في الرؤية الفيزيائية السابقة والمفكر فيه في لاحقتها. فبينما كانت الخفة والوزن سببي الحركة استحالا إلى علاقة للجسم مع محيطه.

واللامفكر فيه في الفيزياء الأرسطية المتمثل في أن الحركة لا تجد واقعها إلا في الفراغ أصبح مفكراً فيه غاليلياً وفحواه: أن الفراغ هو الذي يحقق الحركة بدل أن يعيقها، وهو ما استبدل بالكون المتناغم كوناً مريضاً هندسياً[41].

يقوم المنهج الديكارتي على تحرر من مسبقات الماضي واستثمار هذا التحرر في الوصول إلى مكتشفات علمية جديدة، وفي البحث عن ضمان الحقيقة، لا يجد ديكارت سوى وضوح التفكير وتميزه، ويمكن التوصل إلى هذا عن طريق الشك[42]. وعن طريق الشك يمكن تمييز الأفكار الواضحة التي لا تستمد من الحس أو التقليد، وإنما من ذواتنا من عقولنا وهي أفكار تقتصر على الأفكار الرياضية وعلى فكرة الله.

إن تحويل المكان عبر الثورة الغاليلية من مكان حسي إلى مجرد عقلي أفسح المجال لديكارت لبلورة تصوره عن الحركة وعن اللامتناهي. فقد استبدل بعالم الحس عالم الهندسة المحضة، وهو عالم استطاعت الفيزياء الغاليلية ترييضه. وبناء عليه، تستطيع الأفكار الفطرية المركوزة في العقل أن تكسبنا معرفة يقينية به، وهو عالم يحتوي على المادة والحركة، وقانون الحركة هو قانون القصور الذاتي الذي وضعه الله الذي يمثل الضامن لهذا القانون وغيره[43].

ولكن كيف يتحقق الانتقال من الفكرة إلى الشيء، كيف يتوافق الفكر مع الواقع؟

يكون ذلك عن طريق الشك في كل شيء بما فيه العلم من حيث هو. ومن هنا نتج لزوم البحث عن الأسس النهائية التي يقوم عليها العلم وقد استطاع التأكيد الميتافيزيقي الأول لديكارت تبريراً لمثالية تطابق الماهية الموضوعية للواقع مع الأفكار الفطرية الواضحة والمتميزة. وهذا التأكيد يتمثل في أن اليقين الوحيد هو

---

39 - المرجع نفسه، ص. 50

40 - المرجع نفسه، ص. 60

41 - المرجع نفسه، ص.ص. 53 - 57

42 - المرجع نفسه، ص.63

43 - المرجع نفسه، ص.ص. 66 - 68

معرفة الوعي بذاته، فهو المقياس النهائي للحقيقة. ولإثبات أن الإنسان ذات مفكرة لجأ ديكارت إلى فرضية الإله المخادع الذي يجعل الشك في اليقين العلمي؛ لأنه يسمح لنا بالخطأ أحياناً، وهو شك يمتد لكي يصبح شاملاً إلى الترابطات المنطقية للتفكير؛ ولأجل هذا ينبغي البحث عن يقين أعلى من اليقين الرياضي، وهو اليقين الميتافيزيقي[44]. ولكن هذا الشك التام لا يحول دون استعادة المعتقدات القديمة التي هي من الرسوخ، حيث يستحيل تقريباً منع معاودتها التأثير على عقولنا، وهنا يأتي دور الفرضية الديكارتية الثانية، وهي فرضية الشيطان المخادع.

«سأفترض إذن أن هناك لا إلهاً حقيقياً هو المصدر الأسمى للحقيقة، ولكن شيطاناً ماكراً قد استعمل كل ما أوتي من مهارة لإضلالي، وسأفترض أن السماء والهواء والأرض والألوان والأشكال والأصوات وكل الأشياء الخارجية لا تعدو أن تكون أوهاما وخيالات قد نصبها ذلك الشيطان فخاخاً لاقتناص سذاجتي في التصديق، وسأعد نفسي خلواً من اليدين والعينين واللحم والدم، وخلواً من الحواس، وأن الوهم هو الذي يخيل لي أني مالك لهذه الأشياء كلها. وسأصر على التشبث بهذا الخاطر، فإن لم أتمكن بهذه الوسيلة من الوصول إلى معرفة أي حقيقة فإن في مقدوري على الأقل أن أتوقف عن الحكم ولذلك سأتوخى تمام الحذر من التسليم بما هو باطل، وسأوطن ذهني على مواجهة جميع الحيل التي يعمد إليها ذلك المخادع الكبير، حتى لا يستطيع مهما يكن من بأسه ومكره أن يقهرني على شيء أبداً»[45].

إن الشك معناه الوجود، فأن نشك معناه أن نوجد. واستنتاجاً يصوغ ديكارت التأمل الميتافيزيقي الثاني، وهو حقيقة الذات كفكر[46]. ومن يقين الذات يصاغ التأمل الثالث وهو يقين وجود الله؛ لأن الذات بشكها المستمر لا تكون إلا ذاتاً متناهية فبداهة الذات المثبتة عن طريق الشك تنطوي ضمناً على بداهة تناهيها، ولا يمكن وفق المنطق الديكارتي القائم على ضرورة تصور الكمال قبل تصور غير الكامل إلا بتصور اللامتناهي، وهذا اللامتناهي هو الله. إن وجود إله خالق هو الضامن لتوافق أفكارنا الواضحة والمتميزة مع الواقع، وهو تطابق يؤسس الفيزياء الرياضية وطابعها القبلي الصرف[47].

إن التوجه العام لفلسفة ديكارت يقوم على أن للعقل مبادئ عامة واحدة تشكل ماهيته وتضبط سيرورة تقدمه التي لا تتوقف[48]. هذا العقل الكلي يسعى إلى إقامة علم واحد شامل يقوم على منهج واحد يجد ضمانه في الذات المفكرة وفي الله. ومن نافل القول إن هذا العقل الكلي لا وجود له إلا في الفلسفة المثالية التي يصدر فيها العلم عن العقل ويمارس من طرف ذات عارفة تتوخى الوصول إلى الحقيقة، وهو عقل مفارق ثابت البنى

44 - المرجع نفسه، ص.ص. 76 - 77

45 - رينيه ديكارت، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009، ص.ص. 68 - 69

46 - المرجع نفسه، ص. 88

47 - المرجع نفسه، ص.ص. 124 - 127

48 - محمد هشام، في النظرية الفلسفية للمعرفة، مرجع سابق، ص. 91

لا يمكن أن يكون عقلاً علمياً؛ لأن للمعرفة تاريخاً والعقل الذي يشتغل ضمنها عقل تاريخي دائم التغير في معطياته ولا تاريخ له إلا في انفتاحه على المعرفة العلمية التاريخية[49].

وهذا العقل اللاعلمي الديكارتي الذي ينشد التماسك للنظام الفلسفي وقصر التسليم الفلسفي على ما هو بديهي عقلاً فقط. نقول إن هذا العقل قد وفر الغطاء الأيديولوجي للنظام الليبرالي الناشئ آنذاك، فقد كان على البرجوازية أن تسعى إلى الهيمنة على الطبيعة من أجل جعل التبادل التجاري واسع النطاق هو الصبغة السائدة على العلاقات الاجتماعية، وقد منحتها الفلسفة الديكارتية التسويغ لهذه السيطرة، كما كانت البرجوازية تخوض حرباً ضد الإقطاع وأجهزته الأيديولوجية، وقد ملكتها فلسفة العقل الديكارتية السلاح الأمضى لمواجهة هيمنة اللاهوت والتقاليد؛ فقد وحدت الديكارتية مختلف عناصر هذه الأيديولوجيا عن طريق المقولات الكبرى كالجوهر والذات والفكر والمادة وسهلت لها تلمس طريقها نحو الهيمنة[50]، وهي الفلسفة التي أحدثت القطيعة مع فكر القرون الوسطى، وغيرت نظرة الذات العاقلة إلى نفسها عن طريق تحديد ذاتها من خلال التفكير المتواصل، وتحويل الذوات الأخرى إلى مواضيع يحاول العقل العلمي مقاربتها وفهمها.

الذات المتمركزة حول ذاتها، والتي تتعامل مع الذوات الأخرى كمواضيع كانت طموحاً ديكارتياً نحو تأسيس نهائي، إلا أن الحقيقة أن هذه الذات التي لا تجد ضماناً لوجودها إلا داخلها، احتاجت إلى ضمانة لهذه الضمانة. فاضطر ديكارت إلى دفع ذاته المتمركزة حول نفسها إلى الخلف، ولاذ بفكرة الله التي عدها ديكارت الضمانة للذات المفكرة[51]. وبذلك أصبح الكوجيتو فاقداً الطموح إلى التأسيس النهائي.

رابعاً- المناخ الحداثوي

لا نقول بدعاً إذا عدنا بتاريخ الحداثة إلى القرن السابع عشر، وإن كان البعض يصر على تسجيل لحظة ميلادها بعد ذلك بزمن طويل، ولكن إرهاصات الحداثة يمكن تلمسها في عوامل ظهور الفردية.

فالحداثة بدأت بميلاد تاريخ للزمن، وهو ما أمكن حدوثه بعد انفصال المكان والزمان عن التجربة المعيشة واستحالتهما مقولتين مستقلتين، وهو أمر يصعب فصله عن الأنموذج الإرشادي النيوتني، ويصعب إغفال تأطيره الفلسفي عبر قالبي الزمان والمكان الكانطيين.

إن الزمن الذي امتلك تاريخاً بفضل ما ذكر، أصبح زمناً قادراً على غزو المكان الذي يقف عاجزاً بحكم ثقله وجثته الهامدة على شن حرب دفاعية ضد هذا الغزو، فتلاعب به الزمن عبر حركة سريعة تأبى المعية الإنسان إلا مضاعفتها[52].

---

49 - المرجع نفسه، ص. 92

50 - المرجع نفسه، ص. 96 - 98

51 - انظر بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة جورج زيناتي، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005، ص. 81

52 - انظر زيجمونت باونت، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016، ص. 174

غزو الزمان للمكان نشاط البرجوازية التجارية التي امتلكت وسائل تقنية مكنتها من إتقان هذا الغزو محولة المكان إلى بانو بتيكون -حسب تعبير جيرمي بنتام-[53] وهو مكان يقيد فيه المسجونون في حيز لا يستطيعون مغادرته؛ بسبب رقابة لصيقة يفرضها السجانون، وهو زمان يندفع إلى الأمام؛ فقد تماهت الحداثة مع الاعتقاد بالتقدم الخطي المستقيم، وهي حركة مندفعة إلى الأمام يلزم منها الرغبة في القضاء على الاختلافات بين الحضارات وتوحيدها عبر حشرها في مسار واحد منطلق كالسهم باتجاه مستقبل أفضل رسمت معالمه الحداثة الغربية[54]، وهو تمركز حول الذات التي استمدت وهم كونيتها من عقلانية ديكارتية تمارس فيها الذات حواراً مونولوجياً مع ذاتها، ومن قانون أخلاقي شكلاني كانطي تتعالى بواسطته الذات إلى حد الافراط في تجريدها ومنحها القدرة على التشريع الأخلاقي. ولهذا أصبح أهل الاستقرار القائمون على تكريس قيم العقلانية والتقدم ناقمين على أهل البداوة الذين لا يتمثلون معنى الأرض والحدود التي تقوم على أساسها الدولة التي حولت العرقية إلى ثقافة، وهم مدفوعون بنقمتهم إلى غزوهم؛ من أجل تحضيرهم واستغلال مقدراتهم، وهو ما برر به نشوء التشكيل الاستعماري[55]، كما تماهت الحداثة مع الحقائق المطلقة ومع التخطيط العقلاني للنظم الاجتماعية المثالية، وكذلك بتنميط وقوننة المعرفة والإنتاج.

والحداثة هي وريثة التنوير وعصر النهضة، وقد استمدت تقديس العقل والعقلانية من الإغريق، كما استمدت من المصدر نفسه نظرتها الكلية إلى الإنسان والعالم. وإنما قام تقديس العقل على مركزية الذات، هذه الذات التي تبحث عن أصلها بتوسل العلم لا باختراع الأساطير، وهي مركزية للذات كرستها الديكارتية[56].

إن الفهم الأعمق لليبرالية، إنما يكون بتسليط الضوء على الإطار العام الذي تنتظم داخله، فمن أهم مؤشرات الحداثة على الصعيد السياسي تزايد المشاركة السياسية وظهور المواطن القادر على التعاقد وظهور الأحزاب والجمعيات التطوعية والحركات الاجتماعية، وهيمنة البيروقراطية في إدارة المجتمع الحديث التي حلت محل العلاقات الأسرية والقبلية المباشرة، وهو ما يمكن أن يندرج تحت ثابت من ثوابت الحداثة هو إرادة التغيير.

كما تتسم الحداثة بالانتقال من أشكالها التكنولوجيا البسيطة إلى الاستفادة من المعرفة العلمية والتكنولوجية وتزايد استهلاك الطاقة وتنوع أشكالها، وهو ما يمثل ثابتاً أساسياً من ثوابت الحداثة يطلق عليه إرادة المعرفة[57].

---

53 - جيرمي بنتام (1748 - 1832)، عالم قانون وفيلسوف إنكليزي اشتهر بتبنيه مبدأ النفعية، كما اشتهر بدعوته إلى الحرية الاقتصادية وحرية التعبير والمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة، وبفصل الكنيسة عن الدولة.

54 - انظر فلسفة الحداثة فتحي التريكي، رشيدة التريكي، بيروت: مركز الإنماء القومي، 1992، ص. 14

55 - المرجع نفسه، ص. 262

56 - المرجع نفسه، ص.ص. 17 - 18

57 - المرجع نفسه، ص.ص. 70 - 71

أما في المجال الاجتماعي، فالحداثة قامت بتدمير العلاقات المباشرة القائمة على العلاقات الحميمة، مما أدى إلى ظهور شخصية كوزموبوليتانية متعددة الأوجه ومنقطعة الجذور، وهي شخصية صنعت بإرادة تغيير لا تتخلف.

ومن إرادة التغيير وإرادة المعرفة تنتج إرادة الهيمنة التي جعلت الحداثة تترافق مع التشكيل الاستعماري[58].

ومن سمات الحداثة أيضاً ظهور نموذج جديد للشخصية توصف بأنها رشيدة وعقلانية تتخذ قراراتها على أساس المعرفة والحسابات الدقيقة للربح والخسارة، وهي شخصية فردية متحررة من البنى التقليدية متوجهة نحو الآخر، وقادرة على التسامح معه وقبوله والعيش معه بقدر معقول من عدم اليقين، وهي شخصية فردية مبدعة متوجهة نحو الإنجاز وتحقيق الذات.

وعل الصعيد الفلسفي، قامت على محوري انفصال: [59]

- الأول: يربط المعرفة بالذات في انفصال للفكر عن النظام الأرسطي المسيحي للمعرفة.
- والثاني: محور ينفصل فيه الفكر عن الثنائيات التي طالما ناء بحملها.

خامساً- الأصول التاريخية لليبرالية

إذا كانت العوامل التي سردناها آنفاً كعوامل كرست ظهور الفردية تمثل هيكلاً عظمياً، فإن السيرورة التاريخية المتعينة يمكن تمثيلها كلحم كسا هذه العظام قبل أن تنفخ فيه الآراء الفلسفية المتنوعة الروح، لكي يتمثل خلقاً سوياً.

مناطق التداخل بين الحداثة والفردية لا تخطئها العين، فعقيدة التقدم التي تقوم على طموح الفرد الذي امتلك زمام المبادرة عبر منطقة تداخل أخرى هي البرجوازية التجارية، والتنويعات التي أدخلتها البروتستانتية على العقيدة المسيحية، والأنموذج الإرشادي العلمي القائم على فيزياء غاليليو ونيوتن، والتجلي الفلسفي لهذا الأنموذج على يد ديكارت، وما سببته الفلسفة الاسمية التي هيمنت؛ نتيجة لتأكيد قصور العقل عن إدراك الماهيات في كون محكوم بقوانين نيوتنية صارمة. كل مناطق التداخل هذه تواطأت لظهور مذهب سياسي اقتصادي جديد يقوم على حرية الفرد وحقوقه الطبيعية يمسك بزمام الزمن المتغير ويستخدمه، لاعتقال المكان في معتقل حدوده الكرة الأرضية ومراقبته مراقبة لصيقة بتذرع برؤية كونية متمحورة حول مركزية أوروبية رسمت حدوداً فاصلة صارمة بين الـــ «نحن» والـــ «هم» عبر كيان قومي تمثله الدولة-الأمة التي تجعل من العرقية ذات طابع ثقافي. هذا المذهب السياسي الاقتصادي الجديد هو الليبرالية في تجليها الأول، وهو الليبرالية الكلاسيكية. ولكن الوصف الآنف الذكر، الأقرب للتجريد إنما يجد برهانه في سيرورة من الأحداث التاريخية المتعينة التي يمكن عدها جذوراً تاريخية لليبرالية.

---

58 - المرجع نفسه، ص. 21

59 - المرجع نفسه، ص. 77

ويمكن اقتفاء أثر الليبرالية بدءاً من مرسوم نانت (1598) الذي منح فيه ملك فرنسا هنري الرابع للبروتستانت حرية الوجدان وحرية الممارسة، وهو ما كان إجراء سياسياً أكثر منه مدفوعاً بروح تسامح سائدة.

وما تغليبنا الدافع السياسي على النية الصادقة في التسامح قول بالرأي غير المشفوع بالدليل؛ فقد لقيت براءة نانت معارضة عنيفة من البرلمانات، ومقاومة شرسة في الأوساط الكاثوليكية واستهجاناً من الهوجونت[60]، هذا فضلاً عن أن الكاثوليكية ظلت الدين الرسمي الوحيد[61].

وفي إنجلترا كانت الأنغليكانية متبناة رسمياً، ولكن الكاثوليك كانوا أكثرية والبروتستانت رفضوا الإقرار بالديانة الرسمية وسُمّوا بالطهرانيين، وثمة شريحة يمكن أن تمثل إرهاصاً لتطور فكري لاحق هم المستقلون الذين طالبوا بفصل الكنيسة عن الدولة وبعلاقة بين المؤمن وربه بعيدة عن أي وصاية دينية[62].

وقد كانت المواجهة الكاثوليكية البروتستانتية نتيجة شبه حتمية لصراع مستبطن لم تطفئ جذوته محاولات التسوية والإصلاح، ومن هذا الواقع احتدمت حرب الثلاثين عاماً ما بين 1618 إلى 1648، وكانت شرارة الحرب مواجهات على خلفية طائفية في براغ، وانتهت عام 1648 بمعاهدة عرفت بـــ سلام وستفاليا[63].

وكانت الحرب التي بدأت دينية لتستمر في صبغتها هذه، لفترة ليست بالطويلة لكي تصطبغ بعدها بالصبغة السياسية، وكان واضحاً غياب المشهد الديني عن الصدارة في تحالف الملكية الفرنسية الكاثوليكية مع الدول البروتستانتية (الأقاليم المتحدة والسويد) ضد دولة كاثوليكية أخرى هي البيت النمساوي، صاحب النفوذ في إسبانيا والإمبراطورية الجرمانية[64].

وقد مولت هذه الحرب بما راكمته الرأسمالية الناشئة من موارد، وفي التحول إلى نمط اقتصاد المبادلة بدل اقتصاد الغذاء والإعاشة. وقد كان التقدم الاقتصادي في نهاية القرن السادس عشر من نصيب الأقاليم المتحدة وإنجلترا[65].

ويثوي خلف هذه الحرب عامل اقتصادي يمكن تتبع ملامحه في الثورة التي نشبت في الأراضي المنخفضة، وهي ثورة برجوازية ناشئة ضد النظام الإقطاعي الإسباني، وفي الثورة التي تلتها في إنجلترا وكانت تحمل ذات السمة[66]. أما في فرنسا، فإن طبقة النبلاء لم تستطع التكيف مع التطورات الاقتصادية، وكانت قد افتقرت

---

60 - هم أعضاء كنيسة فرنسا البروتستانتية بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد أخرجوا من فرنسا عقب سلسلة من الاضطهادات الدينية وهاجروا إلى سويسرا وانجلترا وألمانيا وهولندا وأمريكا الشمالية وما يعرف اليوم بجنوب فريقيا.

61 - انظر نور الدين حاطوم، تاريخ القرن السابع عشر في أوربة، ط1، دمشق: دار الفكر، 1986، ص.ص. 23 - 24

62 - المرجع نفسه، ص. 25

63 - المرجع نفسه، ص. 47 - 50

64 - المرجع نفسه، ص. 53

65 - المرجع نفسه، ص.ص. 53 - 54

66 - المرجع نفسه، ص. 58

بعد حرب المائة عام، وباعت أراضيها للطبقة البرجوازية الناشئة التي تحالفت مع الملكية ضد طبقة النبلاء القديمة[67].

ولقد استمر الإصلاح البروتستانتي في تقدمه في القرن السادس عشر في مواجهة إصلاح كاثوليكي مضاد كانت انطلاقته مع مجمع ترانت[68] الذي مهد لحركة امتدت حوالي قرن ونصف[69]. وقد شهد هذا التوتر الكاثوليكي البروتستانتي حرباً أهلية في فرنسا، اضطر الملكية الفرنسية الكاثوليكية إلى التحالف مع الإسبان كما ذكرنا[70]، وقد استمر التوتر قائماً إلى أن حقق البروتستانت نصراً على الملكية عام 1688؛ ففي هذا الانتصار الكبير الذي حققه البروتستانت على الملكية في الثورة المجيدة عام 1688، وبعد أن ظنت الملكية في فرنسا أن الأمور قد استتبت لها، وبعد أن وجهت ضربة قاصمة للبروتستانتية بإلغاء مرسوم نانت، كانت عوامل الثورة ضد الملكية تختمر، وكانت أقوى من أن تسحق إلى غير رجعة[71].

فوحدة الإيمان المرجوة لم تتحقق، وظل الهوجونت على عنادهم، وجاء إلغاء البراءة بنتيجة عكسية، وهي طرح القضية البروتستانتية بصورة أكثر فظاظة؛ فقد شكل الهوجونت المنفيون في إنجلترا وشمال ألمانيا وهولندا قيادة حركة معارضة للملك لويس الرابع عشر ما لبثت أصداؤها أن عمّت أوروبا[72].

وكان نشاط الحركة فاعلاً في الأراضي الواطئة أكثر من أي مكان آخر؛ بسبب عاملين موضوعيين هما: [73]

الأول: أن هذه البلاد كانت مركزاً للاقتصاد البرجوازي الجديد، ومركزاً للثقافة الكالفينية التقليدية المعارضة للكاثوليكية وللملكية. فقد كان الاقتصاد في هذه البلاد أقرب ما يكون إلى الاقتصاد الحر، وقد أخذ طابعه هذا من مركز البلاد الجغرافي المميز على البحار الضيقة عند مصب نهر الراين بين بلدان البلطيق وبلدان المتوسط، وقد استثمر التجار هذه الميزة واعتمدوا مبدأ حرية التجارة، ولكن عقبات كبرى كانت تقف في وجه التاجر الحر ليس أهمها وفرة العرض الذي يؤدي إلى انخفاض الأسعار، وليس أبسطها الحروب الأوروبية المستعرة، وعجز الدول عن تنظيم تجارة ما وراء البحار؛ الأمر الذي دفع التجار إلى مواجهة هذه العقبات عبر الاتحاد في ما بينهم بتأسيس شركات كان من أهمها شركة الهند الشرقية وشركة الهند الغربية وتأسيس مصرف أمستردام الذي يقدم المساعدات للتجار.

---

67 - المرجع نفسه، ص. 61

68 - مجموعة من المؤتمرات التي عقدتها [الكنيسة الرومانية الكاثوليكية] في ترانت بإيطاليا بين 1545 - 1563م. وقد حاول المجمع أن يعرف المعتقدات الكاثوليكية، وأن يُبطل تعليمات البروتستانت. حقق المجمع عدة إصلاحات في إجراءات الكنيسة الكاثوليكية خلال القرنين 16، 17م. وقد أثرت المبادئ التي أصدرها المجمع تأثيراً كبيراً في الكنيسة منذ ذلك الحين.

69 - المرجع نفسه، ص. 62

70 - المرجع نفسه، ص. 58 - 63

71 - See Christopher Dawson, The Historic Origins of Liberalism, Politics, Vol. 16, No. 3 (Jul., 1954), pp. 267 - 282

72 - Ibid., pp. 268 - 269

73 - Ibid.

والثاني: أنه في هولندا تحالفت المعارضة الإنجليزية مع قوى المعارضة الأخرى، وقد توجت الحركة المعارضة بثورة 1688 التي كسرت شوكة الملكية، وأزاحت توازن القوة للمرة الأولى لصالح البروتستانت.

في إنجلترا، لم يرض الرأسماليون الإنجليز عن سياسة ملكهم جاك الثاني الذي تعاون مع لويس الرابع عشر في فرنسا من أجل إعادة الكثلكة إلى إنجلترا الذي يعني إعادة فكرة «الملكية وظيفة عامة» وفكرة «رقابة الدولة» اللتين لا تنسجمان مع الذهنية الرأسمالية.

وكانت ثورة 1688 انتصاراً للبروتستانتية حقاً، ولكنها مثلت انتصاراً للرأسمالية والتجار في لندن والنبلاء الريفيين الذين اتخذوا سمة البرجوازيين بفعل الرأسمالية الزراعية[74]. وقد مثلت الثورة كذلك تحقيقاً للاتفاق المعقود بين الملك والأمة؛ وما اختيار غليوم وزوجته ماريا ابنة الملك جيمس الثاني (1701) ملكاً وملكة بعد الثورة، إلا لأنهما يضمنان احترام بيان الحقوق الذي حاولت أسرة آل ستيوارت[75] استغلاله لتحقيق سلطة مطلقة.

وهو ما يعني أن تنصيبهما ملكين وفق هذا الشرط كفّ يد الملكية عن التدخل غير المقنن في شؤون الرأسمالية، ومنعها من تجاوز صلاحيات المجلس التمثيلي[76]، ولكن انتصار الثورة استبدل بالملكية أوليغارشية مؤلفة من أبناء القديسين الذين تحولوا إلى رجال أعمال وماليين. ولأن النظام في الأصل نظام زراعي، فقد تحقق الاستقرار بتحالف ملاك الأرض مع رجال الأعمال، وهو تحالف قوي بالمصاهرات وبشراء العقارات؛ الأمر الذي صبغ المجتمع الإنجليزي بالصبغة البرجوازية[77].

وفي تغاير مع سياسات الملكية التي أبقت على الفلاحين في حدود الأمان عن طريق التحكم بالأجور والأسعار، عمل النظام الجديد على إطلاق حق الملكية، وإحلال مبدأ عدم التدخل محل السياسة الملكية القائمة على التدخل، وترك الحبل على الغارب للأسعار، لكي تحدّد من تلقاء نفسها في السوق[78].

وقد تبلورت أفكار جديدة تتمحور حول المصلحة الخاصة ومنظومة تقوم على الأهمية الكبرى للمال التي لا تقارن بها أهمية أي شيء آخر[79]. وبينما عاش الملاك والبرجوازيون عصراً ذهبياً غير مسبوق، تدمر الفلاحون والحرفيون وجرى التخلي عن القيم المسيحية التي تمجد الفقر، وصار ينظر إليه على أنه نتيجة للكسل[80].

أصبح البرجوازي مثل الإنسانية الأعلى، وأصبح الشرف الممنوح بالنسب أو بغيرها من سمات الأرستقراطية الغابرة موضع سخرية:

---

74 - Ibid., pp. 269 - 270.

75 - أسرة من أصول بريتانية (نسبة إلى مقاطعة بريتاني في فرنسا) أسكتلندية، حكمت في اسكتلندا ثم بريطانيا منذ عام 1371 إلى عام 1714

76 - نور الدين حاطوم، تاريخ القرن السابع عشر في أوربة، مرجع سابق، ص.ص. 548 - 549.

77 - op.cit.

78 - Ibid.

79 - Ibid.

80 - Ibid.

«فهو رجل إداري يعرف من أين تؤتى الأمور، وكيف ينظم ويوجه فريقاً من الناس أدرك بما فيه من زكانة ما هم عليه من خلق واستعداد أمر معين لتدبير أمر معين..... هو مفاوض لبق ساحر الحركات والنظرات يعرف أصول البحث ويجيد المناقشة ويأتي الأمور من أبوابها ليفضي منها إلى مخارجها الطبيعية، أعطي موهبة عظيمة على الإيحاء والإقناع وحمل الآخرين على اتخاذ القرار النهائي الذي يريده فيأتي وكأنه على السجية. صفاته هذه وغيرها من الصفات تباعد بينه وبين الشريف «الذي لا يهمه من الحياة إلا الظهور بمظهر الحر الباذخ»[81].

نتج عن تحلل الوحدة الدينية أفكار عابرة للحدود، كوزموبوليتانية في بعدها العلمي الذي سادته فيزياء نيوتن وغاليليو وذات سمات خصوصية في بعدها الفلسفي: العقلاني في صيغته الفرنسية الديكارتية، والتجريبي في صيغته الإنجليزية التجريبية، على أن هذه الخصوصية لم تقف عائقاً أمام الالتقاء في هولندا في تيار ليبرالي جدي التقى بدوره مع حركة بيوريتانية ترفع شعارات الحقوق السياسية والحريات الدينية[82].

وعلى الرغم من أن النظام الحاكم بعد الثورة متمثلاً في عوائل الويغ[83] لم يكن متسامحاً إلا أنه لم يكرس عنصرية دينية، وحاول أن يؤسس دولة لا تدين بدين واحد، وإنما تكون لجميع القوى الاقتصادية والاجتماعية للأمة[84].

وقد حل محل الفكر الأرسطي عن كائنات روحية مسكونة بالحقائق المطلقة تصور نيوتني جديد عن الكون كآلة ميكانيكة مؤلفة من أجسام مادية، متموضعة في الفضاء، تتحرك وفق القوانين الفيزيائية، واستبدل بالحقائق المطلقة غير المرئية حقائق أخرى تندرج تحت الفضاء والزمن والمادة[85].

لم يعد الله يرى متربّعاً على عرش سماوي متدخلاً في كل آن زمني في الكون بعنايته الإلهية، ولا حتى كمبدأ روحي للطبيعة كما تصوره فلاسفة النهضة. وإن كان هذا لا يعني أن قادة الحركة لم يكونوا متدينين، ولكن تدينهم لم يكن تديناً أرثوذكسياً مسيحياً، وإنما كان تديناً محمولاً على عقلانية معادية لتشاؤمية كالفن الأغسطينية وللنشوة الصوفية للكاثوليكية الباروكية[86].

وعلى الرغم من هذا، فإن هذا الموقف الجديد من الله والدين لم يذهب إلى حدود قصوى لتجاوزات المذهب الربوبي؛ فقد حرص البروتستانتي الثاوي خلف الثورة الإنجليزية على اتخاذ موقف محافظ وسم العقود الوسطى للقرن الثامن عشر[87].

---

81 - رولان موسنييه، موسوعة تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق، ص. 140

82 - Ibid.

83 - هم تحالف أرستقراطيين متحدرين من عوائل معارضة لآل ستيوارت وقد حولوا معارضتهم إلى صراع للمطالبة بحقوق البروتستانت المنشقين. وقد شجعوا التجارة وتحديث الدولة من دون أن يغادروا موقعهم الأرستقراطي.

84 - Ibid.

85 - Ibid.

86 - Ibid.

87 - Ibid.

ومن هنا نفهم كيف ظهرت رؤى معتدلة على يد الإنسانويين من أمثال بوب[88] تكيف المثل العليا للفكر الإنسانوي مع حاجات الطبقة الوسطى الإنجليزية[89]. ولأن نذر الخطر جاءت من اليمين لا من اليسار والتهديد الحقيقي للنظام كان من اليعقوبية المواجهة للثورة، فقد اتخذ داعمو الثورة موقفاً محافظاً يحاول الإبقاء على الحالة السائدة[90].

وهو عكس الحال في فرنسا التي دفعت بها الوحدة الملكية للكاثوليكية معارضتها إلى اتخاذ موقف راديكالي لا يجد بداً من أجل تجسيد قيم الليبرالية إلا بالقضاء المبرم على الملكية، فإلغاء مرسوم نانت لم يترك فسحة لحرية الرأي كالتي يمكن ملاحظتها في إنجلترا التي أمكن فيها التعايش بين طوائف مختلفة، على الرغم من أن التنوير الفرنسي يدين في كثير من أفكاره للثورة الإنجليزية وإنجازاتها.

ولهذا لم يكن من قبيل الصدفة أن يتلو نهاية البروتستانتية الفرنسية عصر التنوير الفلسفي الذي عد فلاسفته التقاليد المسيحية الغربية بناء قديماً متهالكاً غير صالح للسكن، وأنه يجب أن يؤتى من قواعده، والبناء على صفحة الطبيعة البشرية صرحاً جديداً قائماً على مبادئ عقلانية بسيطة تتناسب مع احتياجات التنوير[91].

ولكن الأفكار الثورية هذه لم تتحقق دفعة واحدة وإنما بالتدريج، فعلى الرغم من أن فلاسفة التنوير الأوائل كانوا كارهين بشدة للإكليركية والقروسطية، إلا أنهم في الوقت نفسه كانوا موالين ومعجبين بنظام لويس الرابع عشر، وكانوا يتبارون للدفاع عنه ضد أي هجوم كما فعل فولتير الذي كان يصرح أن عهد لويس الرابع عشر هو أعظم عهد عرفته فرنسا وأوروبا كلها[92].

وما يسم التنوير الفرنسي بسمة مغايرة لنظيره الإنجليزي أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبرجوازية وبالذهنية البرجوازية، إلا أنه لم يخلق مجتمعاً رأسمالياً جديداً؛ لأن الحكومة ظلت ممسكة بزمام التجارة والصناعة، ولم تفسح سياسة لويس الرابع عشر وغلبرت مجالاً لظهور ماليين كالماليين الإنجليز الذين حكموا شركات الهند الشرقية ومصرف امستردام وبنك إنجلترا.

كان البرجوازي الفرنسي خادماً للحكومة ويهفو قلبه لمؤسسات الحكومة، لا إلى القطاع الخاص؛ ولهذا سميت فرنسا دولة الموظفين، وشكلت بيروقراطيتها نوعاً من أرستقراطية برجوازية متميزة في خصائصها عن النبلاء الإقطاعيين[93].

---

88 - ألكسندر بوب من أعظم الشعراء الإنجليز في أوائل القرن الثامن عشر، اشتهر بشعره الساخر.

89 - Ibid.

90 - Ibid., p. 9.

91 - Ibid., pp. 274 - 275

92 - Ibid.

93 - Ibid. p. 276

شكلت هذه الأرستقراطية البرجوازية ثقافة كلاسيكية ودولة واحدة يسيرها عباقرة إداريون، وظلت هذه الطبقة ذات شأن في القرن الثامن عشر، ولكنها لم تبق محكومة بقبضة صارمة للملك[94]. وقبل الثورة الفرنسية استطاعت الحركة الجانسنية[95] هز أسس الباروكية[96] ومهدت الطريق لسقوط اليسوعية، ولكنها لم تتمكن بعد الهدم من البناء وإنشاء نظام جديد[97].

كان فولتير ومونتسكيو قد لاحظا عن كثب الفرق بين مجتمعهم والمجتمع الإنجليزي، حيث لم يكن للتاج أي سيطرة على السلطة التشريعية، وكانت الحريات السياسية والدينية ممنوحة على حد سواء. ولقد شعر الفيلسوفان بالغبطة للمجتمع الإنجليزي المتسم بالفردانية المترافقة مع علمانية صريحة[98].

إن انتقال الثقافة الإنجليزية الفردانية التي اتسمت -كما أشرنا- بتسوية بين البيوريتانية والتقليد الإنسانوي إلى فرنسا قد جعلها تواجه مجتمعاً منخوراً بالاختلاف بين طوائف متناحرة ومهيمناً عليه من طرف سلطة مطلقة لكنيسة تصادر الفكر. لأجل هذا، فقد كان الفلاسفة الفرنسيون التنويريون راديكاليين في مواجهة الكنيسة، وقد مثل شعار فولتير: «اسحقوا الخسيس» غطاء لرغبة استبدال سلطة مطلقة بسلطة مطلقة. فعلى الرغم من قشرة التسامح التي يشرعن بها الشعار نفسه، إلا أنه كان في جوهره شعاراً يصبو رافعه إلى سلطة مطلقة كونية للعقل والعلم. وبسبب هذه الخصيصة الجوهرية السلطوية، تجد لدى الفلاسفة الفرنسيين نفوراً من فكرة نقل السلطة إلى العوام[99]. ففولتير -تحديداً- كان صريحاً في ازدرائه للعوام الذين لا يستحقون التنوير، ولا تناسبهم إلا العبودية، وهم لا يملكون في رأيه الوقت الكافي لتحصيل الثقافة، فقبل أن يصبحوا فلاسفة سيموتون من الجوع[100].

مثل هذه الأفكار تفسر الانقسام المجتمعي العميق الذي وسم المجتمع الفرنسي، فبينما كان الفلاحون والحرفيون غارقين في معتقداتهم الأرثوذكسية البيزنطية أو الكاثوليكية الباروكية كان القادة والأمراء يتابعون آخر إنتاج الفكر الحديث، ويتبنون عقلانية عصر التنوير؛ الأمر الذي كرس بذور الصراع الطبقي والثورة الاجتماعية.

دمر هذا الانقسام بين الطبقات الدنيا والعليا الأساس الروحي للوحدة الاجتماعية الذي كان سائداً في النظام المسيحي، ومهد الطريق للمطالبة بالحقوق الفردية من حرية ومساواة وجعلها معياراً مسنماً شاهقاً يكاد لا يدركه النظر ولكنه غاية الأمل ومنتهى السؤل[101].

94 - Ibid.

95 - وهي حركة دينية أسسها الهولندي جانسينيوس تقوم فكرتها الأساسية على أن الحرية البشرية لا تكون إلا بزوال أي إكراه خارجي

96 - حركة فنية نحت في المجال الديني منحى الإصلاح الكاثوليكي المعاكس للإصلاح البروتستانتي الذي عدّته هرطقة.

97 - Ibid., p. 277

98 - Ibid., p. 278

99 - Ibid., pp. 279 - 280

100 - Ibid.

101 - Ibid., pp. 281 - 282

كان لزاماً الإشارة إلى المناخ الحداثوي والأصول التاريخية لليبرالية الكلاسيكية التي تعد الشكل الأول من أشكال الليبرالية الذي تمثل مفاهيم أساسية فيه مكوناً من مكونات الأشكال اللاحقة، سواء عبر محاولات تفنيدها وكشف ثغراتها أم في اعتمادها كمفاهيم صالحة لسياقها ولما بعده. ففي بحث سيرورة أي مفهوم وتبدل مدلولاته عبر الزمن، لا بد من تسليط الضوء على المناخ الفكري العام والبنية الاقتصادية السياسية الاجتماعية التي تخلق المفهوم في أحشائها؛ لأن المفاهيم لا تنشأ في فراغ ولا تتخلق من العدم، وإنما هي كائنات يخلقها الظرف التاريخي وتدخل من ثم معه في علاقة جدلية من التأثر والتأثير.

ومن هنا تتأتى صعوبة تحديدها وتعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً مطرداً منعكساً، بل إن هذه المحاولات لحدها أحد أسباب التباسها واستعصائها على الفهم؛ فالليبرالية الكلاسيكية التي نشأت في ظل الحداثة هي شكل مختلف عن الليبرالية في ظل ما بعد الحداثة؛ لأن للحداثة بنية اقتصادية وسياسية وفكرية وتجربة اختبار زمان-مكان مختلفة عما بعد الحداثة، ولابد لهذا الاختلاف أن يترك أثره في تشكيل المفهوم وفي مدلولاته المختلفة. ومن هذه الحقيقة يتبين هزال محاولات اختزال المفهوم في بعض الأوصاف التي تخدم -إذا افترضنا سوء النية- هدفاً أيديولوجياً، أو تعبر عن الجهل بديناميات تطوره إذا افترضنا العكس.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com